

تصدير

بقلم/ عاطف العراقي

أستاذ الفلسفة العربية

إن صدق حدسي، فإن المهتمين بفكر فلاسفة العرب عامة، وفلسفة الفارابي على وجه الخصوص، سيرحبون بصدور هذا الكتاب والذي يبحث في فلسفته الطبيعية والفلسفة الإلهية عند أبرز فلاسفة المشرق العربي، والذي أثرت فلسفته في بلورة العديد من الأفكار التي قال بها أكثر فلاسفة المشرق العربي، وعلى رأسهم ابن سينا، وفلاسفة المغرب العربي، (فلاسفة الأندلس) وأولهم فيلسوف الغربية والتوحيد، ونعني به ابن باجه.

كان هذا الكتاب في الأصل رسالة علمية قدمتها باحثتنا زينب عفيفي للحصول على درجة الدكتوراه من إحدى جامعاتنا. وقد أشرفت على الرسالة وشاركني في الإشراف عليها الأستاذ الدكتور عامر النجار. وشارك في مناقشتها الزميل الدكتور أبو الوفا التفتاراني والذي غادرنا إلى عالم الخلود والبقاء، والصديق الدكتور أحمد محمود صبحي أستاذ الفلسفة بجامعة الإسكندرية، وهو من هو، في دقة البحث الأكاديمي الجاد، وخاصة بعد انتشار أهل الفساد في جامعاتنا المصرية، وتزايد أعداد أشباه الأساتذة، والذين تحسبهم أساتذة، وما هم بأساتذة، بل إنهم ينتمون إلى عالم الصراصير الفكرية، وإن كان أكثرهم لا يعلمون. وماذا نفعل حيالهم، ونحن لا نجد في مصرنا العزيزة محاكم للغش الفكري والتزيف الثقافي!

اقترحت الموضوع على باحثتنا النابهة، وقضت في دراسته عدة أعوام، قضتها بين عالم المخطوطات تارة، ودنيا المؤلفات العربية والأجنبية تارة

أخرى، إيماناً من جانبها بأهمية البحث الأكاديمي الجاد من جهة، وأهمية فلسفة الفارابى فى صياغة عقول ووجدان أبناء أمتنا العربية من جهة أخرى. وكانت عقليتها الناقدة خير معين لها فى تصحيح الكثير من الأحكام الخاطئة والفاصلة التى أشاعها المفسدون فى أرض أو ميدان الفلسفة، والفلسفة منهم براء.

نعم لقد اقترحت الموضوع على باحثتنا التى تعمل الآن عن جدارة واستحقاق، أستاذة للفلسفة العربية فى كلية الآداب - جامعة المنوفية، اقترحت الموضوع، والمنهج أيضاً، لأسباب عديدة، من بينها أن باحثتنا قد حصلت على درجة الماجستير تحت إشرافى، عن فلسفة ابن باجه أول فلاسفة المغرب العربى، والصلات الفكرية بين الفارابى من جهة، وابن باجه من جهة أخرى لا حصر لها، وفى مجالات عديدة. كل من الفيلسوفين صاحب عقلية فذة غير تقليدية من قريب أو من بعيد. واهتم كل واحد منهما بالدراسات المنطقية أكثر من غيرهما من فلاسفة العرب. والرسائل الفلسفية التى قام بتأليفها الفارابى وبعده ابن باجه مازلنا نواصل العمل نحو تحقيقها ثم دراستها. وكل من الفيلسوفين قد قدم لنا تصوراً لمدينة نموذجية مثالية، الأول من خلال كتابه "آراء أهل المدينة الفاضلة"، والثانى من خلال كتابه "تدبير المتوحد" تضاف إلى هذه الأسباب أسباب أخرى عديدة، من بينها أن الدكتورة زينب عفيفى لديها القدرة العلمية والحس النقدى الذى يعد ضرورياً لدراسة مثل هذه الموضوعات التى نجد حولها العديد من الأحكام الخاطئة من جانب أناس يكتبون فى كل شىء. نسبوا إلى الفارابى آراء لم يقل بها. نسبوا إليه على سبيل المثال، القول بحدوث العالم، ولم يضعوا فى اعتبارهم أنه من القائلين بالفيض والذى يلزم عنه بالضرورة القول بقدوم العالم وليس بحدوثه. واعتماد القول بالفيض ليس من أفلوطين فقط كما يزعم الجهال وأشباه

الأساتذة، بل أضاف إلى أفلوطين، مؤثرات جاءت إليه عن بطليموس تارة، وأرسطو تارة أخرى..

ولكن الأشباه من الباحثين والجهلاء من الأساتذة يرفضون هذا تمامًا، لأنهم يرفضون كل فكر جاء إلينا من بلاد اليونان، وبحيث يقولون إنه فكر مستورد والعياذ بالله، جاء إلينا من بلاد الفرنجة التي انتشر فيها الفساد والضلال ولم يضعوا في اعتبارهم أنه لولا الاطلاع على الفلسفة اليونانية ودراستها، لما وجدنا لدينا فلاسفة عرب، بل إن كلمة الفلسفة تعد كما نعلم كلمة يونانية، وليست كلمة عربية. ولكن ماذا نفعل أمام الأشباه والصراصير الفكرية!!!

قامت الدكتورة زينب عفيفى بتقسيم بحثها إلى مجموعة من الفصول والنقاط والجزئيات، وجاء تقسيمها شاهداً على دقتها الأكاديمية وعقليتها الناقدة، وكاشفاً عن ثراء اطلاعها وسعة معارفها.

لقد تحدثت حديثاً تحليلاً عن حياة الفارابى الفكرية ومؤلفاته فى مجال الفلسفة الطبيعية والإلهية، ومنهج الفارابى فى تصنيف العلوم، ومبادئ الموجودات الطبيعية وعللها الأربعة، المادية والصورية والفاعلة والغائية، والعالم فى طبيعيات الفارابى، سواء عالم الكون والفساد، العالم الأرضى، عالم ما تحت فلك القمر، أو عالم ما فوق فلك القمر، العالم العلوى.

وانتقلت الدكتورة زينب عفيفى من دراستها لأبعاد الفلسفة الطبيعية عند الفارابى، إلى دراسة الفلسفة الإلهية عند الفيلسوف المشرقى، وذلك طبقاً للموضوع الذى اختارته كموضوع للدراسة للدكتوراه.

درست موضوع الأدلة على وجود الله تعالى والتي قدمها الفارابى وعلى رأسها دليل الممكن والواجب، ذلك الدليل الذى اتفق ابن سينا مع

الفارابي في القول به، واختلف معه الفيلسوف العملاق، ابن رشد، آخر فلاسفة العرب، وبحيث قام بنقده نقدًا عنيقًا، إذ قد نجد فيه بعض المؤثرات الكلامية، وابن رشد كما نعلم يعد أكبر عدو لدود لفكر المتكلمين عامة، وفكر الأشاعرة على وجه الخصوص.

كما تحدثت الدكتورة زينب، حديثًا مطولاً ووافياً عن صلة الله تعالى بالعالم في فلسفة الفارابي من خلال القول بالفيض، أو الصدور، أو العقول العشرة، منتقلة من هذا إلى تحليل مشكلة الاتصال وأبعادها المعرفية والميتافيزيقية.

إن دراسة الدكتورة زينب عفيفى لفلسفة الفارابي الفيزيقية والميتافيزيقية، تعد دراسة محكمة ودقيقة، إنها تتغل من دراسة جزئية إلى دراسة جزئية أخرى تترتب عليها. وهذا قد أدى إلى وجود وحدة عضوية سارية بين فصول وجزئيات ونقاط دراستها للفارابي.

ولم تقتصر باحثتنا الدكتورة زينب على البعد الموضوعي الأكاديمي والذي يسعى إلى سبر أغوار الفلسفة الفارابية من خلال الرجوع إلى العديد من المصادر والمراجع العربية وغير العربية، وبحيث تعول بصفة رئيسية وبالدرجة الأولى على كتب الفارابي وكتب الفلاسفة الذين سبقوه، والذين عاشوا بعده، لم تقتصر على ذلك، بل نجدتها - وهي التي تتميز بالحس النقدي - تختلف مع هذا الرأي أو ذاك في الآراء التي قيلت حول الفارابي وبحيث وجدت أنه من الضروري الوقوف تجاهها، وقفة نقدية.

وإذا كنا نختلف مع تلميذتنا بالأمس، وزميلتنا اليوم، الدكتورة زينب عفيفى، في رأى أو أكثر من الآراء التي قالت بها من خلال دراستها للفارابي

والتي ذكرتها في خاتمة دراستها، وفي ثنايا صفحات بحثها، أو كتابها، إلا أنه من الضروري أن أشير إلى أن الاختلاف في الرأي من طبيعة الفلسفة والتفلسف، إنه يعد كما نقول باستمرار ظاهرة صحية، وليس معبراً عن ظاهرة مرضية فاسدة، كما يزعم ذلك أنصار ثقافة الظلام من أشباه أساتذة الفلسفة والذين انتشروا حالياً كالذباب الفكري داخل جدران العديد من أقسام الفلسفة في مصر وسائر بلدان العالم العربي من مشرقه إلى مغربه.

نعم إن الاختلاف يعد متوقعا، فنحن إزاء آراء فيلسوف عظيم، ولسنا أمام آراء واحد من الجهال، وكلما زادت مساحة الاختلاف كان ذلك دليلاً، ودليلاً قوياً، على ثراء آراء المفكر أو الفيلسوف. ولكن ماذا نفعل أمام ثقافة أشباه الأساتذة الذين ينهلون من الثقافة الفاسدة، ثقافة دول البتروفكر، الثقافة التي تعد نتاجاً للدولار، وما أدراك ما الدولار.

إننا من جانبنا نشئ ثناء بغير حدود على البحث الفلسفي الذي يحلل أبعاد الفلسفة الفارابية والذي تقدمه الدكتورة زينب عفيقي اليوم، للطبع والنشر. ونقدم التحية الواجبة علينا لباحثتنا جزاء إخلاصها في البحث، وقدرتها الأكاديمية، ونرجو لها كل توفيق في دراساتنا المقبلة، وهي جديرة تماماً بمواصلة البحث والدراسة، فالقضايا الفلسفية لا حصر لها، والأحكام الفاسدة والتي تحتاج إلى تصحيح في مجال الفلسفة العربية، يتزايد عددها، نظراً لتزايد الأشباه والأقزام والجهال وأنصاف أو أرباع المثقفين.

نعم إننا نأمل من باحثتنا القيام بالعديد من الدراسات الفلسفية الجادة من جهة، وتصحيح الأحكام الفاسدة من جهة أخرى، لأنها على ثراء واسع من الاطلاع، وصبر على تحمل مشاق البحث الفلسفي العميق، ونظرات تأملية عميقة حين تتصدى لدراسة أي موضوع، أو أية مشكلة من مشكلات البحث

الفلسفى، إتها واثقة الخطوة لأنها لا تكتب إلا بعد اطلاع واسع على كل أبعاد موضوعها، وواتق الخطوة ىمشى ملكًا كما يقال.
والله هو الموفق للسداد.

الإسكندرية فى ١٥ نوفمبر عام ٢٠٠١م

عاطف العراقى

تصدير عام

يحتل الفارابى فى تاريخ الفلسفة الإسلامية مكانة بارزة، خاصة إذا وضعنا فى اعتبارنا ما تركه من تراث فكرى غزير تمثل فى مختلف العلوم التى كانت معروفة فى عصره. فقد عالج مسائل الطبيعىات، والإلهيات، والمنطق، والفلك، والتنجيم، والهندسة، والسياسة والأخلاق، هذا بالإضافة إلى علوم الدين كالفقه والكلام. بحيث أصبحت كتبه خلاصة وافية للمعرفة فى عصره، وذلك بالإضافة إلى العديد من الآراء التى توصل إليها والتى لا تعد من جانبه مجرد ترديد لآراء من سبقوه.

فإذا أضفنا إلى ذلك ما تركه من أثر فيمن جاء بعده من الفلاسفة والمفكرين فى العصور التالية - إسلامية كانت أو مسيحية أو يهودية - فما من فيلسوف من فلاسفة القرون الوسطى إلا وتربطه بالفارابى رابطة قرابة أو نسب فى الفكر والرأى، وما من فكرة أو نظرية أصلية فى الفلسفة الإسلامية إلا وتدين للفارابى، وما من مقالة فيها إلا ولها أصل فى مقالاته وفلسفته؛ أدركنا للوهلة الأولى أنه لم يكن عجباً أن يحتل الفارابى المقام الأول بين المفكرين والفلاسفة مما حدا بكتاب التراجم إلى وصفه بأنه أكبر فلاسفة الإسلام، وبأنه فيلسوف المسلمين على الحقيقة، وإلى تسميته بالمعلم الثانى توضيحاً لمكانته ومنزله وأثره بعد المعلم الأول (أرسطو).

وإذا كانت المجالات المنطقية، والسياسية، والإلهية والأخلاقية من مجالات الفلسفة الفارابية قد جذبت انتباه الباحثين فى الفلسفة الإسلامية، ونالت اهتماماً كبيراً من جانبهم، فتناولوها بالبحث وألفوا فيها الرسائل الجامعية والكتب العلمية، فإن الجانب الطبيعى من فلسفته لم يحظ من جانبهم بالاهتمام الذى هو به جدير. وليس هناك ما يبرز عزوفهم عن دراسة هذا

الجانب الهام من جوانب فلسفته، اللهم إلا إذا كانوا قد آثروا عدم الخوض في مجالات قد لا تبدو فيها الناحية الابتكارية واضحة تماماً. إذ أن أكثر جوانب فلسفته الطبيعية يكاد يكون فيها متأثراً بأرسطو.

ولكن هذا لا يعد - في رأينا - مبرراً قوياً لابتعادهم عن دراسة هذا الجانب من فلسفة الفارابي خاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن كل فيلسوف هو الذي يصنع فلسفته بنفسه، فهو يعمل عقله في فهم أغراض سلفه وسبر أغواره في محاولة لتجاوزه والإتيان بما لم يستطعه، وهذا ما فعله الفارابي خاصة في هذا الجانب. فقد اتضح لنا أن الفارابي قد تجاوز أرسطو في بعض مسائل الطبيعيات خاصة في تصويره للكون بقسميه (عالم ما تحت فلك القمر. وعالم ما فوق فلك القمر) كائناً عضوياً عاقلاً مديراً حكيماً يجرى كل شيء فيه بدقة ونظام بعد أن بين تأثير العالم الأعلى في العالم الأدنى.

كذلك تجاوزه في مذهبه في علل الموجودات حين أثبت الفاعلية للعلة الغائية، فالله الذي كان علة غائية عند أرسطو يصبح علة فاعلة عند الفارابي إلى جانب كونه علة غائية أيضاً، وشبه الاتصال بين الله والعالم عند المعلم الأول يصبح اتصالاً حقيقياً عند المعلم الثاني.

وهكذا يمكن القول بأنه رغم تأثره بأرسطو في هذا المجال، إلا أنه قد وضع بصماته البارزة على مجال الفلسفة الطبيعية. لقد كان مضيئاً تارة، حاذفاً تارة أخرى، وكانت لديه القدرة على الاطلاع على كثير من الآراء كما كانت لديه قدرة كبيرة أيضاً على الهضم وعلى الاطلاع على العديد من الأفكار ثم صهر هذه الأفكار بحيث تبدو وكأنها لم تكن مجرد نقل آراء السابقين. ومن هنا تحددت معالم الشخصية الفارابية والمنهج الفارابي. والفيلسوف - أي فيلسوف - إنما هو ابن عصره وبيئته لا ينفصل عما يثار في عصره من مشاكل، أو عما يموج به من أحداث متوقعة. فكان مسألة العبقرية

أو الابتكارية إنما تعود إلى مقولات اجتماعية وثقافية وحضارية من خلال وجوده وتعايشه مع المجتمع.

وفى رأى أن نبوغ الفارابى قد وضح حين تصدى لكثير من المشاكل المعلقة، والنقاط الغامضة والتي يتعارض بعضها مع البعض ولم تستطع الفلسفة اليونانية حلها أو إزالة ما فيها من تناقض وغموض. وليس أدل على ذلك من كلام المستشرق «هورتن» حين ذهب إلى القول بأن أرسطو لم ينجح فى وضع نسق شامل للعالم كله منظوراً إليه من خلال صورة ذهنية واحدة، فهو لم يرد جملة العالم إلى مبدأ واحد، إنما هى إثنيية تتقابل فيها الهيمولى القديمة مع الله. وهذا المذهب الأرسطاطاليسى فيه عناصر علمية نظرية محضة، لكن النزوع القوى فيه إلى الاعتماد على ما فى الوجود الخارجى، وحده يشوبها ويعطلها أن الله عقلا صرفا ليس له إرادة وهو يحرك العالم باعتباره معشوقا «لا كعلة فاعلة، ثم هو يجهل الجزئيات وذلك مذهب فى الالهية ليس بفلسفى».

أخذ الفارابى إذن على عاتقه سد أكثر ثغرات فلسفة أرسطو وجلاء كل غامض فيها، والبت فى كل ما تركه معلقا دون حل، وإحكام الصلة بين الله والعالم، وتحويل الله من علة غائية إلى علة فاعلة، وجعله محيطاً بكل شىء علما، وصهر الجزئيات جميعا فى نظرة واحدة شاملة تستغرق كل شىء فالحقيقة واحدة لأن منبعها واحد.

ويكفى أن نقول أنه مهد الطريق لمن جاء بعده من الفلاسفة والمفكرين، بل جاء سابقاً لعصره فى بعض المجالات التى تناولها، صحيح أن بعض آرائه كانت ماثرا لنقد النقاد، ولكنها لم تنس أو تهمل. فقد كانت مفتاحا للكثير من المشكلات، ونقطة التقاء من جهة، وتفرع عنها كثير من الاتجاهات من جهة أخرى. ومن هنا كانت عبقريته، ولكنها العبقرية التى أتمت بعض

الأجزاء وبدأت البعض الآخر وتركت منه أجزاءً ناقصة حاول خلفاؤه إتمام بنائها. وتلك هي مسيرة الحضارة والتاريخ.

وقد يرى البعض أن دراسة جانب قد أثبت العالم الحديث بطلان أكثر أجزائه، بالإضافة إلى بطلان المنهج الذى أتبع فى دراسته، إنما يكون فى ذلك مضیعة للوقت ولا فائدة مرجوة من ورائه، ولكن هؤلاء قد تناسوا أننا ندرس تراثا فكريا كان فى يوم من الأيام خصبا معطاء، غزير الإنتاج، جليل الأثر، ازدهر به العلم والحضارة أمدا طويلا.

وقد اتضح لنا من دراستنا لهذا الجانب من فلسفته أن فيها نظريات وأفكار واتجاهات لا يمكن إغفالها، خاصة وإنها ترتبط ارتباطا وثيقا بسائر أجزاء فلسفته.

من أجل هذا آليت على نفسى تناول هذا الجانب وهو «الفلسفة الطبيعية» بالبحث والدراسة، ولكننى حينما شرعت فى تناول هذا الجانب وجدت أن الفارابى لم يكن هدفه الأساسى - شأنه شأن كثير من الفلاسفة الذين سبقوه، أن يتجه إلى البحث الدقيق فى طبيعة الكون وقضاياها بتناول جزئياته المادية، واستخلاص قوانينها لتفسير ظواهر هذا الكون، بقدر ما كان هدفه تجاوز ذلك كله من أجل أن يضع تفسيراً شاملا لأسس الوجود وطبيعته وما فيه من حقائق. فنظر إلى حقائق الكون نظرة الفيلسوف، فتداخلت المجالات الفيزيائية مع المجالات الميتافيزيقية فى أكثر الموضوعات التى تناولها، وأصبحت هناك طبيعيات إلهية أو بالأحرى مقدمات طبيعية للإلهيات، وتمت صياغة الطبيعيات على نحو عقلى خالص دون أى أساس تجريبى - هذا على الرغم من اهتمام الفارابى فى تصنيفه للعلوم وترتيبه لأقسام الحكمة بوضع الطبيعيات قبل الإلهيات، وبتحديد موضوع كل علم منهما وكذلك منهجه.

ولكن فى ضوء النظرة المتكاملة نحو الفكر الفلسفى فى الإسلام، والنظر إلى الحقيقة الفلسفية على أنها واحدة، يصبح من الضرورى، بل من المنطقى التلازم والترابط بين الفلسفة الطبيعية والفلسفة الإلهية بحيث يودى هذا التلازم فى نهاية الأمر إلى قيام العلاقة والتداخل بين البدء والنهاية.

ولذلك فقد رأيت اختيار الجانب الطبيعى والجانب الإلهى من نسقه الفلسفى محاولة بيان الصلة بين الجانبين وموضحة الأبعاد الفيزيقية والميتافيزيقية فى كل مشكلة وفى كل موضوع من الموضوعات التى تناولتها بالبحث فى هذين الجانبين.

هذا إلى جانب أننى وجدت فى فلسفته الإلهية عمقًا وغوصًا بعيدًا فى أغوار موضوعاتها، وإثارة لمشكلات كانت موضع مناقشات مستفيضة عند فلاسفة العصور الوسطى ومحاولاته وضع حلول لأكثر تلك المشكلات، كما وجدت فيها امتزاجا عجبيا بين فكر أرسطى، وفكر أفلوطينى، وفكر إسلامى وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على مدى ما تمتع به من نبوغ فذ فى تمثل تلك الاتجاهات جميعا وصهرها فى بوتقة واتحدة حتى خرج لنا بمذهب متكامل، فكان بحق أول من فصل الفلسفة عن علم الكلام، ووضع لها الأساس الثابت الوطيد وأقام لها البناء الضخم الذى ظل يؤثر فى الفكر فى جميع العصور التالية إسلامية كانت أو مسيحية.

وأود أن أشير إلى أن اختيار موضوع «الفلسفة الطبيعية والإلهية عند الفارابى» إنما كان الهدف الأساسى منه سد فراغ فى المكتبة الفلسفية العربية. نعم فراغ عجيب خاصة بالنسبة لهذا الفيلسوف العميق التفكير الذى تتلمذ عليه كثير ممن جاء بعده من فلاسفة، والذى يمثل حلقة الاتصال بين الفكر اليونانى من جهة والفكر الإسلامى من جهة أخرى. فتناولت هذا الموضوع الذى لم يدرس بعد دراسة متكاملة.

أما طريقة معالجتنا لموضوع هذا الكتاب فتتلخص فى الآتى:

أولاً: أن هذا البحث لا يقتصر على حدود الفلسفة الطبيعية والفلسفة الإلهية عند الفارابى، بل يبحث فى صلته بسابقه ومن جاء بعده من الفلاسفة والمفكرين سواء كانوا موافقين له أو مختلفين معه. وقد دفعنى إلى ذلك ما وجدته عند فيلسوفنا من نظريات وآراء سبق للذين جاءوا قبله تقريرها، حتى أنه يمكننا أن نعد مذهبهم مصباً لمعظم التيارات الفلسفية والعلمية التى سبقته خاصة أرسطو وأفلاطون وأفلوطين والكندى، وبحيث نكاد نقول أنه ما من فكرة وجدناها عند الفارابى سواء فى فلسفته الطبيعية أو فلسفته الإلهية إلا وقد أشرنا إلى مصدرها.

أما عن صلته بمن جاء بعده فلا يمكن لأحد أن ينكر تلك البصمات الظاهرة التى تركها الفارابى فى تاريخ الفكر عامة والفكر الفلسفى خاصة. فقد ظل اسم فيلسوفنا يتردد بلا انقطاع منذ ظهوره فى القرن الرابع الهجرى وحتى اليوم عند أكثر الفلاسفة والمفكرين الذين ظهوروا فى تلك الحقبة من الزمان.

ثانياً: إننا فى كتابنا هذا لم نقتصر على تقرير فلسفته الطبيعية والإلهية، بل تضمنت بحثنا نظرتنا الخاصة وتأويلنا الذاتى لفلسفته خاصة فى هذين الجانبين، وما نتج عنهما من مشكلات عديدة، فلم أحاول عرض فلسفته بطريق الدفاع والتبرير، وإنما حاولت من جانبى تدبر آرائه ودراستها ثم الحكم عليها.

إن تلك النظرة الموضوعية إلى تراث الفيلسوف هى التى تساعدنا على فهم آرائه ونظرياته حق الفهم، كما أنها تساعدنا على الوقوف على الأخطاء التى تردت فيها الفلسفة الإسلامية.

فيكون ذلك عوناً لنا في دراستنا المستقبلية على تلاقى تلك الأخطاء.

ثالثاً: إننا في معالجتنا لفلسفة الفارابي سواء الطبيعية منها أو الإلهية ينبغي علينا أن نضع نصب أعيننا بعض الأمور التي ربما تفسر كثيراً من المشكلات التي تواجهنا حين نسعى لفهم فلسفته، وربما تبرر لنا بعض الآراء المتناقضة التي وقع فيها الفارابي مع ماله من باع عظيم في الغوص في أعماق المشكلات الفلسفية والعلمية كمشكلة خلود النفس، وقدم العالم، وعلم الله، والمعرفة، والنبوة... إلخ.

من هذه الأمور: أن الفارابي كان فيلسوفاً مسلماً آمن بكل ما جاء به الإسلام، كما أنه فيلسوفاً أفاد من الفلسفة اليونانية وأعجب بها إعجاباً لا حد له، هذا بالإضافة إلى أن فلسفة أرسطو قد اختلطت لديه بفلسفة أفلاطون، والأفلاطونية المحدثة حين اعتمد على كتاب أثولوجيا المنسوب خطأً إلى «أرسطو» وهو «أفلوطين». ولم يكن ذلك عن عمد كما اتهمه بعض المغالين. وربما يفسر لنا ذلك تذبذب بعض آرائه وتناقضها مع بعضها الآخر.

رابعاً: لما كانت كل دراسة فكرية لتراثنا تحتاج إلى عمق تاريخي يواكبها ويظهر معالمها، لذا فإننا قد اعتمدنا في هذه الدراسة على المصادر الأصلية والمنابع الرئيسية التي تعود للمفكر ذاته. وتلك وسيلة أجدى وأنفع وأكثر دقة من اعتمادنا على «ما نقل عنه»، خاصة في تحليلنا لمواقفه الفكرية والفلسفية، فأولينا عنايتنا للنصوص القائمة بين أيدينا فجاورنا بذلك حد الشكل إلى حد المضمون،

وإن كان ذلك لم يصرفنا عن تناول الكثير من المراجع الحديثة التي تناولت فكر الفارابي وفلسفته الطبيعية والإلهية بنظريات حديثة ووجهات نظر مختلفة حاولت من جانبي أن أعرضها مع احتفاظي بحقي في موافقتها أو مخالفتها.

ولما كان كل بحث منهجي عن التراث إنما يقوم على قاعدتين أساسيتين هما:

التحليل، والتركيب. فقد اعتمدت هذا المنهج في دراستي لجوانب الفلسفة الطبيعية والإلهية عند الفارابي، هذا إلى جانب أنني لم أغفل الجانب التاريخي للمرحلة التي تقوم عليها تلك الدراسة.

وأود أن أشير إلى أنني قد عانيت في أثناء بحثي من بعض الصعوبات. منها ما تعلق بأسلوب الفارابي في مؤلفاته - فقد تميز أسلوب الفارابي بأنه شديد الغموض، كثير الإيجاز، وليس في كلامه ترادف أو استطراد - فهو يعطى المعاني الغزيرة في عبارات مقتضية فلا يطيل ولا يسهب، ولا يميل إلى التكرار إلا قليلاً حتى يصعب فهم مقاصده وأغراضه أحياناً. وصدق قول ابن خلكان «وأكثر مؤلفاته يقع في رقاع منثورة وكراريس متفرقة إذ لم يترك من الكتب الطويلة والرسائل المسهبة إلا القليل، فجاءت تصانيفه - إلا أقلها - مضطربة... وهي بالفصول والتعاليق أشبه».

كما كان لفقد الكثير من مؤلفاته وخاصة في مجال الفلسفة الطبيعية ما شكل لي صعوبة كبيرة، ولكنني بتوفيق من الله استطعت تخطي تلك الصعوبات فأوليت عنايتي بنصوص الفارابي التي وردت في صميم كتبه، ومؤلفاته، وشروحه استخرج منها ما تعلق بالفلسفة الطبيعية حتى أمكنتي الوقوف على آرائه في أكثر الموضوعات التي تناولها في الفلسفة الطبيعية، وشرعت في كتابة هذا الجزء الخاص بالفلسفة الطبيعية بعد أن اطمأنت نفسي

إلى أن ما عثرت عليه من نصوص للفارابى فى هذا المجال يكفى لكتابة هذا الجانب .

كما تجدر الإشارة إلى أننى حاولت الحصول على كتاب نسبة «بروكلمان» إلى الفارابى باسم «المقالات الرفيعة فى أصول علم الطبيعة»، وهو وإن كان من الكتب المشكوك فى نسبتها إلى الفارابى إلا أننى حاولت الحصول عليه ولم أوفق . وفى رأى أنه لن يزيد عن أن يكون شرحا لكتاب أرسطو فى الطبيعة، ولن يخرج عما ذكره الفارابى فى سائر مؤلفاته الأخرى، خاصة وأن الفارابى كان يتبع فى مؤلفاته طريقة التأليف الشامل، أى أن كل مؤلف من مؤلفاته كان يتضمن آراءه فى موضوعات الفلسفة من طبيعيات، والهيئات، ومنطق، ورياضيات، وسياسة، وأخلاق... إلخ ولم يكن أكثر فلاسفة عصره قد عرفوا طريقة التأليف الجزئى المتخصص .

أما صعوبة فهم مغاليق الفارابى فى أسلوبه وعباراته فقد استطعت تخطيها بالرجوع إلى تلميذه وشارحه «ابن سينا» الذى بلغ من شهرته أن أصبحنا نعزوا إلى «ابن سينا» آراء وأفكاراً هى فى الحقيقة من صنع الفارابى وابتكاره، وابن سينا يعترف بذلك ويقر له بالسبق والأولوية كما يدين له بالنبوغ والأستاذية . وقد بلغ من تعلق ابن سينا بنظريات أستاذه أن بذل كل جهد فى تفهّمها، وأفاض فى شرحها وتوضيحها بحيث منحها نفوذا وسلطانا لم تنله على يد صاحبها ومبتكرها .

وقد يؤخذ علينا أحياناً محاولتنا تحليل أفكار الفارابى فى ضوء ما كتبه تلميذه «ابن سينا»، إلا أن الرجلين متكاملان يوضح كل منهما الآخر ويتممه، ولئن كان للفارابى فضل السابق . فإن لابن سينا فضل البيان والإيضاح . ولو احتفظ لنا الدهر بكل ما كتبه الفارابى فربما لم نستعين على

تفهمه بمؤلفات أتباعه، فأما وأنه قد وصل إلينا منه نزر يسير فنحن مضطرون إلى توضيح غامضة بمختلف الوسائل.

وقد قسمت الكتاب إلى ثمانية فصول رئيسية تفرعت عن كل واحد منها بعض الموضوعات الفرعية:

فى الفصل الأول منها: أوجزت كل ما تعلق بحياة الفارابى ومكانته الفكرية وأثرها فى تاريخ الفلسفة، ثم حاولت أن أبين كيف كانت ظروف عصره وما ظهر فيه من صراع سياسى وصراع فكرى له أثره الكبير على فيلسوفنا خاصة فى أسلوبه وفى بعض مؤلفاته، فلم يكن الفارابى بعيدا عن صراع عصره، ولم تكن مدينته الفاضلة سوى دلالة روحية، واجتماعية، وسياسية، وتاريخية عن حركة المجتمع العربى الإسلامى فى القرن الرابع الهجرى، كما كانت تعبيرا عن امتزاج عالمه الفكرى بواقعه السياسى والاجتماعى.

كما كان للصراع الفكرى وظهور التيارات الفكرية المختلفة وتأثرها بانتشار حركة الترجمة فى عصره أثرها الكبير على فيلسوفنا خاصة فى تناوله لبعض النظريات والمشاكل الفلسفية، ومحاولته التوفيق بين مقتضيات العقيدة الدينية، والحقيقة الفلسفية وخاصة ما يتعلق منها بمسائل الكون والطبيعة، أو مسائل إلهية تعلقت بالكون وخالقه وكيفية خلقه.

ثم تناولت مؤلفات الفارابى موضحة كيف كان الفارابى منتجا إلى أبعد حدود الإنتاج فى شتى المجالات، فقد اقتربت مؤلفاته من المائة كتاب أتى فيها على الفلسفة بشتى فروعها. ولكن وللأسف فقد ضاع أكثر هذه المؤلفات، وحتى القليل الذى بقى منها شك فيه بعض الباحثين والمستشرقين.

كما أوضحت من خلال هذا الفصل ذلك المجهود الضخم الذى قام به

المستشرقون في ترجمة تراثه وتحقيقه ونقله إلى دول أوروبا مما كان له أكبر الأثر على الفكر الأوروبي وتاريخ الحضارة عامة.

وفي الفصل الثاني: تناولت منهج الفارابي في تصنيف العلوم موضحة سماته، وأسسه، وكيف كان الفارابي أول من عنى بتصنيف العلوم وإحصائها من بين فلاسفة العرب ومتكلميهم، بحيث كان لهذا التصنيف أثره على فلاسفة العرب في المشرق والمغرب، كما كان له تأثيره على فلاسفة أوروبا في القرون الوسطى.

وبما أننا نتناول في كتابنا الجانب الطبيعي، والجانب الإلهي من فلسفة الفارابي فكان لا بد لنا من أن نعرض موضوع العلم الطبيعي ومنهجه، وموضوع العلم الإلهي ومنهجه، كما عرضهما الفارابي في تصنيفه للعلوم، ثم أوضحنا مقصوده بالفلسفة الطبيعية وموضوعاتها، وكيف انتهى الفارابي إلى علم إلهي طبيعي بحكم التداخل بين موضوعات الفلسفة الطبيعية الإلهية.

أما في الفصل الثالث: فقد خصصته لتناول فلسفة الفارابي الطبيعية، وتناولت في القسم الأول: مبادئ الموجودات الطبيعية وبدأت بالحديث عن ماهية الجسم وإثبات جوهرية المادة والصورة، ثم تناولت خصائص الهيولى والصورة ثم تحدثت عن العدم كمبدأ ثالث بالعرض للجوهر الجسماني، وكان لا بد من التطرق إلى نقد الفارابي لنظرية الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ إذ أنه من القائلين بالمادة والصورة والعدم كمبادئ للموجود الطبيعي.

وفي القسم الثاني: تناولت علل الموجودات الطبيعية وهي العلة المادية، والعلة الصورية، والعلة الفاعلة، والعلة الغائية، وعرضت رأي الفارابي في مشكلة السببية وإنكار المصادفة والاختيار، وما ذلك إلا لأن كل ما يحدث في الكون إنما يحدث بأسباب محددة.

وأخيراً عرضت مشكلة السببية من خلال منظور نقدي ممثلاً في اعتراضات الغزالي والأشاعرة الذين ينفون العلاقات الضرورية بين الأسباب ومسبباتها، لأن في القول بالعلاقات الضرورية بين الأسباب ومسبباتها تحديد من قدرة الخالق، كما فيها إنكار للمعجزات، كذلك عرضت رد ابن رشد على الغزالي واتهامه إياه بالسفسطة واعتباره أن من يرفع السببية فقد رفع العقل وأبطل العلم.

وفي القسم الثالث: تناولت لواحق الموجودات الطبيعية وهي الحركة، والزمان، والمكان والخلاء. وأثبت كيف أن الفارابي متابعاً لأرسطو قد اعتبر أن الحركة هي محور الطبيعة الذي تدور حوله إذ ليس فيها شيء أبرز منها، فنظرية الحركة هي نقطة الابتداء لجميع النظريات المتفرعة عنها، والمتعلقة بها. فهي أصل الزمان وأساسه، كما أن الحركة لا يمكن أن تتم إلا في مكان، كما أن المتحرك لا يشترط لكي توجد الحركة وجود الخلاء، ومن هنا فقد نفى وجود الخلاء.

ولم تكن دراسة الفارابي لمبادئ الموجودات الطبيعية وعللها ولواحقها إلا بفرض تطبيق تلك الأسس العامة التي توصل إليها على كل الموجودات، ومن هنا فقد وجدناه يشرع في تناول أحوال العالم وأجسامه وموجوداته وخصائصه... إلخ. وهو ما خصصنا له الفصل الرابع.

ففي هذا الفصل الرابع: عرضت رأي الفارابي في موجودات العالم ومراتبها في الوجود ثم أقسامه، حيث يتبين لنا أن الفارابي متابعاً في ذلك أرسطو قد قسم العالم إلى: عالم ما فوق فلك القمر، وعالم ما تحت فلك القمر، ثم بينت أثر العالم العلوي في العالم السفلي، وأخيراً أثبت أن الفارابي رغم تقسيمه للعالم إلى قسمين إلا أنه أثبت أن العالم واحد متناه، وأن الأرض كروية ولكن ثابتة في مركز الكون.

وقد تبين لنا كيف أبطل العلم الحديث أكثر النظريات التي وردت في فلسفة الفارابي الطبيعية. ثم انتقلت بعد ذلك إلى تناول مسائل الفلسفة الإلهية. وبدأت بمدخل لهذه الفصول حاولت فيه توضيح كيف كانت مبادئ علم الطبيعة عوناً له على فهم أكثر مسائل ما بعد الطبيعة، وكيف ألقت الميتافيزيقا ظلالها على فلسفة الطبيعة عنده فتداخلت المجالات الفيزيقية مع المجالات الميتافيزيقية في أكثر الموضوعات التي تناولها مما أدى إلى غموض بعضها واضطراب البعض الآخر.

وفي الفصل الخامس: تناولت بالدراسة "الله تعالى في فلسفته الإلهية" مبينة دلائل وجوده، وصفاته تعالى. وقد حاولت أن أبين المصادر الدينية والفلسفية التي تأثر بها الفارابي في مجال الألوهية، كما عرضت عدداً من الأدلة التي استدلت بها الفارابي على وجود الله. وقد قسمت تلك الأدلة إلى أدلة كونية: كدليل الحركة، ودليل العلة التامة، ودليل العناية والغائية، وأدلة عقلية: كدليل الماهية والوجود، والممكن والواجب. موضحة كيف كتب لهذه الأدلة - كونية كانت أو عقلية - الذبوع والانتشار بحيث أصبحت تتخلل الفلسفة الإسلامية كلها من أقصاها إلى أقصاها كما تخللت فلسفة العصور الوسطى عند اللاتين.

ولما كان العقل البشري عاجزاً عن بلوغ حقيقة "الله تعالى" ومعرفة ذاته، كان لا بد من وسائل نلتمس بها تلك الماهية المقدسة. وقد رأى الفارابي أن ذلك لا يكون إلا بخلق مجموعة من الصفات يمكننا بها الوقوف على حقيقة ذاته تعالى، ومن هنا يتناول الفارابي صفات الله شارحاً إياها بالتفصيل فيعطى صفة الوحدانية الأولوية، كما يثبت له تعالى بعض الصفات وينفى عنه صفات أخرى إمعاناً في تنزيهه.

وهكذا يمكن القول بأنه ذهب في مذهبه في الصفات إلى التنزيه المطلق، وأنكر إنكاراً تاماً وجود صفات إلهية مستقلة عن الذات. ومن هنا كان مبدأ أن الصفة هي عين الذات المستعار عن المعتزلة يشكل أساساً هاماً تدور حوله فلسفة الفارابي الإلهية.

وقد حاولت عرض رأيه في الصفات بموضوعية تامة فتناولت بعض أوجه النقد التي وجهت إليه سواء من جانب المتكلمين أو من جانب الفلاسفة.

وفي الفصل السادس: يتناول الفارابي "علاقة الله بالعالم" ويتساءل عن كيفية صدور الموجودات المتكثرة المتعددة من الله الواحد؟ وهل يمكن أن يصدر عن الواحد كثرة، أم أنه لا بد وأن يصدر عنه واحد؟

وقد وجد الفارابي في مذهب الصدور أو الفيض الحل الأمثل لتفسير هذه العلاقة، بل إنه اعتقد أنها الحل الأمثل لكثير من المشاكل التي صاحبت الفلسفة في تطورها وتعاملها مع المشاكل الأساسية كمشكلة الوجود، ومشكلة المعرفة، ومشكلة الشر... إلخ.

وقد عرضنا مذهبه في الفيض كما عرضه في سائر كتبه وبمستويه الذوقي والعقلي، موضحين الأسس التي قام عليها، والمصادر التي استمد منها القول بالفيض.

وفي الفصل السابع: تناولت بالبحث والدراسة مشكلة تتصل اتصالاً وثيقاً بمجال الألوهية وهي مشكلة الاتصال، أي اتصال الإنسان بالله وتحقيق السعادة القصوى له. فعرضنا لنظرية الاتصال كما قال بها الفارابي محاولين إيضاح عوامل تكوينها، والاتجاهات التي تأثر بها في تقريره لنظرية الاتصال كالاتجاه الأرسطي، والاتجاه الأفلوطيني، والاتجاه الإسلامي. كما حاولت

بيان أبعادها المعرفية بنظرية العقول ومراتبها عند الفارابي حتى يصل إلى درجة العقل المستفاد التي تؤهله للاتصال بالعقل الفعال وتلقى نور العلم والمعرفة منه فتتحقق له السعادة القصوى.

كذلك حاولت بيان أبعادها الميتافيزيقية والتي وضحت تمام الوضوح من تناول الفارابي لمسائل الفلسفة الطبيعية وبالذات النظريات الفلكية، وكذلك من إقامة أكثر من دليل على وجود الله، ومن البحث في الصفات الإلهية، ثم من نظرية الفيض وما ترتب عليها من القول بقدوم العالم زمانا وحدوثه بالذات. وأخيراً لا يمكننا اغفال اتصالها بإثبات جوهرية النفس وخلودها.

وهكذا كانت نظرية الاتصال التي يغلب عليها الطابع العقلي الوسيلة التي تمكن بها الفارابي من تحقيق السعادة القصوى، كما عرضت منهجه في الاتصال بالعقل الفعال من خلال نص له من كتاب "فصول متزعة".

كما حاولت بيان أثر نظرية الاتصال الفارابية في الفكر العربي والعالم الغربي، وكيف اعتنقها يهود القرون الوسطى ومسيحيوها، كما اعتنقها فلاسفة الإسلام ومتصوفيه من قبل.

أما الفصل الثامن والأخير: فقد تناولت فيه مشكلة النبوة عند الفارابي موضحة عوامل اهتمام الفارابي بهذه المشكلة، فعرضت رأيه فيها وكيف كان هذا الرأي يمثل انجهاً عقلياً يختلف إلى حد ما عن الاتجاه الذي عرضت به المشكلة كما جاء بها الوحي، كذلك بينت أثر المخيلة في حصول المعرفة النبوية وارتباطها بالأحلام. بالإضافة إلى ذلك فقد تناولت خصائص النبوة كما ذكرها الفارابي مع بيان رأيه في الفيلسوف والنبى من خلال مقارنة بين موضوع النبوة في الإسلام والنبوة كما تناولها الفارابي.

وأخيراً عرضت النتائج التي توصلت إليها.

وبعد. أرجو أن أكون بهذا المجهود قد قمت بقليل مما ينبغي أن يقوم به الباحث في مجال الدراسات الفلسفية، وأن أكون قد وفيت جزءاً من واجبي نحو أحد أجدادنا العظام، كما أرجو أن يكون كتابي هذا عوناً على تكوين رأى صائب إزاء فيلسوف له الفضل على كل من جاء بعده من الفلاسفة والمفكرين. خاصة أن تناولنا جانب الفلسفة الطبيعية من مذهبه سيكون عوناً على تعديل نظرة الكثيرين من الباحثين لهذا الجانب من فلسفته والذين آثروا البعد عن تناوله بالدراسة استشعاراً منهم بغموضه وقلته مراجعه ويكون ذلك بداية لدراسات أخرى تثري المكتبة الفلسفية، وتوضح للعالم كله دور فلاسفتنا وعلمائنا العظام في التطور الحضارى من خلال تاريخ البشرية.

والله الموفق للسداد، ،